المحاضرة الثانية :

البعد القومي في الشعر العربي الحديث

تمهيد:

إن الحركة الأدبية ذات صلة وثيقة بالوضع الوطني والاجتماعي فقد كان الأديب دائما ضمير الأمة وصدى همومها وأمالها ولسانها المعبر عن معاناتها وطموحها، يرصد جوانب الخير والشر فيها... داعيا إلى سعادة الإنسان وكرامة وطنه معلنا عداءه لكل أشكال الظلم والقهر وأساليب الاستبداد التي تتعرض لها حرية الأفراد والأوطان.

ولا شك أن الوعي القومي عند كل شعب وأمة هو عنصر نهضة قومية وهو ما حدث في الوطن العربي الذي شهد صنوفا من الحكم الاستبدادي والاضطهاد السياسي تحت ظل الحكم العثماني، حيث اشتدت موجة الرفض العربي، فبرزت جمعيات حملت لواء الوعي الوطني والقومي وكانت نواة نهضة عربية (جمعية الإخاء العربي سنة 1908، المنتدى الأدبي 1909، وجمعية الفتاة 1911، جمعية العهد 1913)، وكان هذا الوعي سبيلا للانطلاق نحو التحرر، حيث بدأ الصراع يشتد بين الروح العربية المتطلعة للاستقلال وبين قوى الاستعمار، فشهد الوطن العربي أكثر من ثورة ضد الاستعمار، لكنها كانت في بداياتها تفتقر إلى التناسق والانسجام ولكنها قويت مع بداية الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين مع إعادة القوة للعلاقة بين مصر والعرب، فبدأ تيار العروبة يزداد والتقت الأهداف القومية ، فانعقد في لبنان سنة 1933 مؤتمر ضم بعض رجال الحركة القومية العربية من سوريا ولبنان وفلسطين والعراق، وجاء في البيان الصادر عن المؤتمر أن الأقطار العربية بكليتها وطن عربي واحد، وما أحدثه الاستعمار من تجزئة طارئة لا تقره الأمة العربية ولا ترضى به.. العرب في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم أمة واحدة والعروبة أخوة يتساوى فيها العرب قاطبة في الحقوق والواجبات ، والقومية العربية فوق كل شيء وقبل كل شيء.

وبعد الحرب العالمية الثانية أخذت الدعوة إلى القومية تأخذ منحى آخر فبعد أن كانت مقولات نظرية، انتقلت إلى مجال التطبيق إذ أصبحت محاولة التجسيد العملي في شكل تجارب وحدوية وأصبحت الأيديولوجيات القومية حقيقة قائمة يعيشها الإنسان العربي.

البعد القومي في الشعر العربي الحديث:

أن القومية العربية كانت تيار فكريا أكثر منه تيار سياسيا ذلك أنها اعتمدت أول ما اعتمدت على مقاومة تيار القضاء على اللغة العربية والتاريخ العربي ومعالم التراث والبطولات العربية. فاللغة والتاريخ العربيان هما روح الوعي القومي وجوهره ومن خلالهما كانت صرخة الشعر العربي الحديث، كما أخذ الوعي القومي يبرز حين أخذ مهمة التنديد بأعداء الأمة العربية من أجانب ومستعمرين وطامعين في خيراتها معلنا الثورة ضد الظلم والاستبداد والتعلق بالآمال الخادعة ، ولعل بائية "إبراهيم اليازجي" خير مثال على الشعور القومي العربي المبكر في الشعر العربي إذ تعد أول قصيدة ثورية عربية أنارت الهمم من مكمنها فأخذت الناشئة العربية تردد أبياتها الحماسية، يقول:

تنَبَهوا وَاستَفيقوا أَيُّها العَرَب فَقَد طَمى الخَطبُ حَتّى غاصَتِ الرُّكَبُ

فيمَ التَعَلُّلُ بالآمالِ تَخدَعَكُم وَأَنتُم بَينَ راحاتِ الفَنا سُلُبُ

اللَّهُ أَكبرُ ما هَذا المَنام فَقَد شَكاكُمُ المَهد وَاِشتاقَتكُمُ التربُّ

كَم تُظلمون وَلَستُم تَشتَكون وَكَم تُستَغصبونَ فَلا يَبدو لَكُم غَضَبُ

أَلِفتُم الهون حَتّى صارَ عِندَكُمُ طَبعاً وَبَعضُ طِباعِ المَرءِ مُكتَسَبُ

ألقيت القصيدة في اجتماع سري على أعضاء الجمعية السورية سنة 1886 عندما كان العرب قابعون تحت السيطرة الحكم العثماني وقد أراد الشاعر أن يحث هذه الأمة على الاستيقاظ من سباتها الذي أبى أن ينتهي .

تبنى مجموعة من الشعراء العرب القضايا القومية العربية فاستحقوا ألقابا لذلك ، كشاعر العرب "محسن الكاظمي"، و شاعر القومية العربية "الزهاوي"، وشاعر العروبة "الرصافي" فمثلت تجاربهم الشعرية وعيهم القومي ، ودافعوا عن اللغة العربية بوصفها

مصدر الثقافة العربية، وكذا التاريخ العربي بوصفه قاسما مشتركا للأمة يحمل ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فنظم "حافظ إبراهيم" قصيدته "اللغة العربية تنعي حضها بين أهلها" سنة 1903 يصور فيها واقع العربية بين أبنائها، إذ يريد لها أن تستعيد مكانتها الماضية وأن تنال ما تستحقه من تقدير ، ومنها البيت الشهير:

أنَا البحر في أحشائِه الدُّر كامن فهل سألُوا الغَوَّاصَ عنْ صَدَفَاتِي

وذهب كثي من الشعراء إلى تأكيد فكرة أن اللغة العربية مصدر الأخوة بين العرب جميعا بغض النظر عن انتماءاتهم وعقائدهم، وأن بلاد العرب كلها بلاد واحدة، ومثال ذلك ما ذهب إليه "فخري بارودي" في قصيدته "بلاد العرب أوطاني" التي تغنى فيها بالقومية العربية ، وامتدح الوحدة، يقول:

بلادُ العُربِ أوطـــــاني مـنَ الشّـــــامِ لبغدان
ومن نجدٍ إلى يَمَـــــنٍ إلى مِصـــــرَ فتطوانِ
فـلا حـــدٌّ يـــباعـدُنا ولا ديـــنٌ يـفـــرّقـنا
لسـان الضَّـــادِ يجمعُـنا بـــغـسَّانٍ وعـــدنـانِ

مجد الشاعر العربي القومي الحرية والاستقلال من خلال ارتباطه الوثيق بالوطن، وأخذت بعض الرموز تبرز في الشعر القومي: كالشهيد والفداء والنضال والاستقلال خاصة بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فكانت لغة الشعر القومي تجنح نحو الحماسة لاستثارة الوعي وإيقاظ الهمم.

استلهم الشعر العربي الحديث – في كثير من نماذجه – من الوعي القومي صوره ومعانيه ودلالاته في التعبير عن الروح العربية في كفاحها ونضالها من أجل حريتها والحفاظ على موروثها وتاريخها ولغتها، كما استمد الوعي القومي من الشعر وهجه وحماسته ، فكانا يتفاعلان في كثير من الأحيان.